كلمة

السيد أحمد أبو الغيط
الأمين العام لجامعة الدول العربية

أمام

الدورة العشرين

لمؤتمر الوزراء المسئولين عن
الشئون الثقافية في الوطن العربي

تونس: 14 ديسمبر 2016

دولة رئيس الوزراء السيد يوسف الشاهد

معالى الدكتور عادل بن زيد الطريفي

وزير الثقافة والإعلام في المملكة العربية السعودية

معالى الدكتور محمد زين العابدين

وزير الشئون الثقافية بالجمهورية التونسية

الدكتور عبد الله محارب

مدير عام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الحضور الكرام،

أود في البداية أن أتوجه بالشكر إلى الأخ الدكتور عبد الله محارب على دعوته لي للمشاركة في افتتاح أعمال دورتكم العشرين...

وأود أيضاً أن أصرح لكم بأننى قضيتُ ما يقرب من خمسين عاماً في معترك السياسة والدبلوماسية.. عاصرتُ القضايا العربية الكبرى، وأتاحت لي الظروف أن أكون في القلب من بعضها...شهدتُ سنوات صعود وانتصار، وأحسست بمرارة الهزيمة والانتكاسة.. وبعد كل هذه السنوات ما زال السؤال يُلح على ذهني ويشغل فكري: هل مأزقنا العربي هو أزمة سياسة أم ثقافة؟

ربما يستسهل أهل السياسة إلقاء اللائمة عليكم.. أهل الثقافة. ولكنني أقولها صادقاً بعد كل هذه العقود من الانشغال بالشأن السياسي والدبلوماسي.. الثقافة فى تقديرى تأتي أولاً، وكل شيء آخر يأتي

بعدها...الثقافة هي المُبتدأ والمنتهى في أي مشروع وطني أو عابر للأوطان.. وهي البنية الأساسية التي لا غنى لأي إنجاز حضاري عنها.. السياسة فرعٌ من الثقافة، وأحد منتجاتها.

الأديب الكبير والمربي التونسي الفاضل محمود المسعدي قال ذات يوم: "اعطوني زراعةَ أضمن لكم حضارة"، والحق أن هذا المعنى ينطبق أكثر على الثقافة. اعطوني ثقافة، مُنفتحة ومُبتكرة ومتجددة، أضمن لكم انجازاً حضارياً. بل إن الثقافة، بمعناها الشامل ومفهومها الواسع، هي الحضارة ذاتها...الثقافة هي منهج فكر وأسلوب للعيش، وطريقة للحياة، ونظرة كُلية إلى العالم...تراكمٌ من الخبرات والقيم المتوارثة التي تختزنها جماعة بشرية بعينها، وتتناقلها جيلاً بعد جيل.

المأزق العربي الراهن يرتبط – في تقديري – بالثقافة قبل أي شيء آخر. وإذا كانت المجتمعات العربية تمر بأزمة كُبرى وممتدة نشهد جميعاً تداعياتها علي النسيج الوطني في بعض الدول، وصولاً إلى القتل على الهوية والتشريد لملايين البشر...فإن علينا أن نبحث في الثقافة أولاً وقبل أي شيء آخر. علينا أن نسائل أنفسنا، بشجاعة وتجرُد، عن الحال الراهنة لثقافتنا العربية. هل أنتجت هذه الثقافة مُجتمعات منفصلة عن عصرها، أقرب إلى نماذج بائسة من الماضي منها إلى نماذج مشرقة من المستقبل، مُزعزعة في خياراتها الرئيسية، حائرة في أهدافها.. كيف تحولت الثقافة، في أحيان كثيرة، إلى عائق بدلاً من أن تكون دافعاً للاستنهاض القومي الشامل؟

ثم ما الذي تحتاجه هذه الثقافة لكي تُعيد تغيير المُجتمعات العربية، وتنقلها من حال الضعف إلى فضاء النجاح والثقة والانجاز لمواطنيها؟

السيدات والسادة،

هذه الأسئلة وغيرها مطروحةٌ على الجماعة الثقافية – بامتدادها على رقعة العالم العربي – منذ وقت طويل. وليس صدفة أن تكون الثقافة محوراً رئيساً للعمل العربي المُشترك، فالعمود الفقري يتمثل في الرابطة الثقافية واللغوية بين أعضائها من الدول التي يتحدث جميع سُكانها اللغة العربية، ويربطهم التراث العظيم للثقافة العربية الرائدة...الجامعة العربية...هذه المنظمة كان من أوائل انجازاتها صدور "معاهدة الوحدة الثقافية العربية" في 27 نوفمبر 1945 بهدف "التعريف بالثقافة العربية وتنشيط حركتها، وتعزيز اللغة العربية وجميع روافدها الحضارية والتراثية الأصيلة". وقد اعتبر البعض – وعن حق – هذه الاتفاقية المدخل الحقيقي لإنجاز الوحدة العربية المنشودة. فالثقافة هي الجامع الحقيقي بيننا، والحاضن لطموحاتنا وأحلامنا المُشتركة، حتى لو فرّقت بيننا السياسة وتقلباتها. وعلى نفس هذا الطريق جاءت الخطوة الهامة الثانية في إنشاء" المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة" – ألكسو – في عام 1964.

والحقيقة أنه برغم الجهود الكبيرة التي تقوم بها هذه الهيئات والمنظمات، فإن الشوط ما زال طويلاً أمامنا لكي نشعر بالطمأنينة على حال الثقافة العربية، وعلى دور المُثقفين العرب في البناء الوطني الشامل...بعض المثقفين يشعر بالتهميش من السُلطة، وبعضهم الآخر يُكابد مشاعر اليأس

والغربة عن المجتمع ولسان حاله ما قاله فليسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، أبو حيان التوحيدي، عن "الغريب الذي طالت غربتُه في وطنه".

السادة الحضور،

الثقافة العربية تبدو اليوم مُحاصرة، وكأنها تقف على جزيرة معزولة وسط محيط هائج ومضطرب.. ليس باستطاعتنا الوصول إلى بر الأمان إلا بمد الجسور.. يحتاج المثقفون العرب – في رأيي – إلى أربعة جسور رئيسية لا غنى عنها لتأسيس ثقافة عربية سليمة صحيحة ومُبدِعة.

الجسر الأول يصل المثقف بعصره، ويربط الثقافة العربية بنظيرتها العالمية.. من دواعي الأسى أن نعرف أن ما تُرجم إلى اللغة العربية من زمن سقوط الخلافة العباسية وحتى اليوم يُعادل ما يُترجم إلى الاسبانية في عام واحد.. العالم يتحرك بسرعة.. الرقمنة والذكاء الاصطناعي يغيران من طبيعة الثقافة ذاتها...وسائط التواصل الاجتماعي، التي يناقشها مؤتمركم الموقر في احدى جلساته، تخلق فضاءً ثقافياً واعلامياً جديداً يجعل من البشر مُستقبلين ومنتجين للثقافة في آن معاً.. إن تشييد هذا الجسر الذي يصل الثقافة العربية بعصرها ويربطها بُمجريات هذا الزمان هو مهمة أساسية للمثقف العربي ومسئولية لا يُمكنه التخلي عنها أو التنصل منها.

أما الجسر الثاني المطلوب فذلك الذي يصل الثقافة العربية بماضيها.. إن الانطلاق إلى الحداثة لا يجب أن يعني الانسلاخ من التراث أو نبذه أو التبرؤ منه...مطلوب من المثقفين العرب موقفاً شجاعاً من التراث يقوم على إعادة قراءته والتفتيش فيه، واستلهام بواعث النهضة من داخله.. ليس

صحيحاً أن التراث مرادف للانغلاق أو الاستغراق في الماضي.. الثقافة العربية سبق لها أن انفتحت على الدنيا بروافدها المختلفة.. عصر الترجمة الذي انطلق في القرن الثاني الهجري جعل من الثقافة العربية جسراً عبر عليه التراث الكلاسيكي إلى أوروبا انطلقت منه إلى نهضتها...في القرن الخامس وقعت الردة بتكفير الفلاسفة وإغلاق باب الاجتهاد وانغلاق الحضارة العربية / الإسلامية على نفسها...نحن ما زلنا نعيش حالة الانغلاق تلك بصورة أو بأخرى إلى يومنا هذا...لن يحدث الانطلاقة المنشودة سوى بنظرة موضوعية وعقلانية إلى تراثنا العربي.. نظرة بعين المُحب، وعين الناقد في نفس الوقت.

الجسر الثالث المطلوب هو الجسر الذي يصل المثقفين العرب بأهل السلطة والحكم، ذلك أن الهوة بين الجماعتين – الجماعة المثقفة والجماعة الحاكمة – هي المسئولة عن الكثير من التوترات في المجتمعات العربية...ليس من مصلحة أي حكم تهميش المثقفين.. ولا أرى أن من مهام المثقف وضع الحُكم موضع الاتهام الدائم.. صحيح أنه من طبيعة دور المثقف نقد الحُكم، ولكن من واجبه كذلك أن يكون شريكاً في البناء عبر تقديم البدائل.. يتعين علينا أن ننتقل من مرحلة العداء والمنافسة بين قصور الحُكم وأروقة الجامعات، إلى فضاء من التعاون بينهما.

أما الجسر الرابع والأخير، وفى تقديري أنه الأهم، فهو ذاك الذي يصل المثقف العربي بمجتمعه.. وأقول بكل صراحة إن الأحداث التي عصفت ببعض دول العالم العربي في السنوات الخمس الماضية كشفت عن هوة

واسعة تفصل بين المثقف وواقعه السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. صحيحٌ أن المثقف يُفترض فيه أن يجسد الحُلم بالأفضل والأمل بالتغيير، ولكن التغيير الذي لا ينطلق على أسس سليمة راسخة على أرض الواقع – بكل مفرداته وتفاصيله – يصير قفزةً إلى المجهول وربما رِدة لما هو أسوأ.. إن دراسة الواقع العربي، وتكوين معرفة علمية دقيقة بحال المُجتمعات العربية هو المهمة الأولى للمثقف.. وهي مهمة تزداد صعوبة كل يوم...فالمجتمعات العربية مجتمعات شابة..6% من سكانها أعمارهم تقل عن 25 عاماً...هذا يعني أن الواقع العربي متُجدد ومتحرك...على المثقف ملاحقة هذا الواقع، وعدم الانفصال عنه أو الاستعلاء عليه.. فمنه، ووفقاً لمُحدداته، يُمكن الانطلاق إلى المستقبل المأمول على أرض صلبة واثقة.

الحضور الكريم،

قصدتُ أن أعرض عليكم في هذه العجالة رؤيتي لواقع الثقافة العربية الراهن...وما أتصوره للخروج من الأزمة...ويقيني أن مؤتمركم – الذي يتناول موضوعاً مُعاصراً ومهماً، هو "الإعلام الثقافي في ضوء التطور الرقمي" – سوف يُسهم في فتح آفاق جديدة وطرح أسئلة واقتراح أفكار وحلول لعلها تُساعِد في بناء الجسور الأربعة التي تحدثت عنها. وأثق أن المثقف العربى...وهذه الأمة العربية القادرة...سوف تنجح فى مواجهة التحدى الضاغط عليها فى اللحظة الراهنة...وسوف تتحاكى الأجيال مستقبلاً كيف نجحنا فى الاستجابة للتحدى.

ختاماً، فإنني أتقدم بالشكر لحكومة الجمهورية التونسية لاحتضانها هذا المؤتمر، وتوفيرها كل سبل إنجاحه، وأهنئها مُجدداً على اختيار مدينة صفاقس العريقة عاصمة للثقافة العربية لهذا العام، وهي مدينة فريدة حقاً بثقلها الحضاري واسهامها الثقافي. كما أعبر عن تقديري العميق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة على ما قامت به من جهد كبير في الإعداد لهذا الحدث حتى يخرج بالصورة اللائقة ويُحقق الفائدة المنشودة من ورائه.